الفصل الخامس

دين الوسطية والعدل

من أبرز خصائص الاسلام « الوسطية » ، ويعبر عنها أيضا « بالتوازن » • ونعنى بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويطغى على مقابله •• ومثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة الروحية والمادية ، والفردية والجماعية ، والواقعية والمثالية ، والثبات والتغير ، وما شابهها • ومعنى التوازن بينها هو أن يفسح لكل طرف منها مجاله ، ويعطى حقه « بالقسط » أو « بالقسطاس المستقيم » ، دون غلو ولا تقصير ، كما أشار الى ذلك القرآن الكريم بقوله :

« والسماء رفعها ووضع الميزان • ألا تطغوا فى الميزان • وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » • (الرحمن : ٧ ــ ٩)

وهذا فى الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الانسان ، بعقله المحدود ، وعلمه القاصر ، فضلا عن تأثير نزعاته الشخصية وميوله وأهوائه وغلبتها عليه بطريقة شعورية أو لا شعورية • ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر من الافراط أو التفريط ، كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ •

ان القادر على اعطاء كل شىء فى الوجود ــ ماديا كان أو معنويا ــ حقه بحساب وميزان ، هو الله سبحانه الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا ، وأحاط بكل شىء خبرا ، وأحصى كل شىء عددا ، ووسع كل شىء رحمة

وعلما .. ولا عجب أن نرى هـذا التوازن الدقيـق فى خلق الله ، وفى أمر الله جميعا ، فهو صاحب الخلق والأمر . فظاهرة التوازن ، تبدو فيما آمر الله به وشرعه من الهدى ودين الحق ، أى فى نظـام الاسلام ومنهجه للحياة ، كما تبدو فى هذا الكون الذى أبدعته يد الله ، فأتقنت كل شىء [١] .

اننا ننظر فى هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار ، والنور والظلام ، والحرارة والبرودة ، والمـاء واليابس .. كلها بقدر وميزان وحساب ، لا يطغى شىء منها على مقابله ، ولا يخرج عن حده المقدر له . وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة فى فضاء الكون الفسيح ، أن كلا منها يسبح فى مداره ، ويدور فى فلكه ، دون أن يصدم غيره ، أو يخرج عن مساره . وصدق الله العظيم اذ يقول :

- « **انا كل شىء خلقناه بقدر** » . (القمر : ٤٩)
- « .. **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** » . (الملك : ٣)
- « **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون** » . (يس : ٤٠)
- « **الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشـجر يسجدان . والسـماء رفعها ووضع الميزان** » . (الرحمن : ٥ — ٧)

* * *

مظاهر الوسطية فى الاسـلام

ان مزايا الوسطية تتجلى واضـحة فى كل جوانب الاسلام .. فالاسلام وسط فى الاعتقاد .. وسط فى التعبد .. وسط فى الأخلاق والآداب .. وسط فى التشريع والنظام . وسنناقش هـذه الجوانب فيما يلى [٢] :

---

(١) يوسف القرضاوى — **الخصائص العامة للاسلام** . ص ١١٤—١١٥

(٢) **المرجع السـابق** ، ص ١٢١ — ١٤١

أولا — وسطية الاسلام فى الاعتقاد :

١ — فهو وسط فى الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون فى الاعتقاد ، فيصدقون بكل شىء ، ويؤمنون بغير برهان .. وبين المـاديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة ، ولا نداء العقل ، ولا صراخ المعجزة . فالاسلام يدعو الى الايمان والاعتقاد ، ولكن بما قام عليه الدليل والبرهان اليقينى ، ويرفض ما عدا ذلك ويعتبره من الأوهام ، وشعاره دائما :

« .. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » . (البقرة : ١١١)

٢ — وهو دين وسط بين الملحدين الذين لا يؤمنون بالله قط ، خانقين صوت الفطرة فى صدورهم ، ومتحدين منطق العقل فى رؤوسهم .. وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار ، وألهوا الأوثان . فالاسلام يدعو الى الايمان بالله واحد لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . وكل ما عداه مخلوقات لا تملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ، فتأليهها شرك وافتراء وضلال مبين :

« ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » . (الأحقاف : ٥)

٣ — وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده ، وما عداه — مما لا تراه العين أو تلمسه اليد — خرافة ووهم .. وبين الذين يعتبرون الكون وهما لا حقيقة له ، وسرابا يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئا . فالاسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها ، ولكنه ينتقل من هـذه الحقيقة الى حقيقة أكبر هى : من كون هـذا الكون ونظمه ودبر أمره ، وهو الله تعالى :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .. » .
(آل عمران : ١٩٠ — ١٩١)

٤ — وهو وسط بين الذين يؤلهون الانسان ، ويضفون عليه خصائص الربوبية ويعتبرونه اله نفسه ، يفعل ما يشاء دون حساب •• وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ، فهو كدمية يحرك خيوطها المجتمع أو الاقتصاد • فالانسان فى نظر الاسلام مخلوق مكلف مسئول ، سيد فى الكون ، عبد لله ، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغير ما بنفسه :

« •• ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم •• » •

(الرعد : ١١)

٥ — وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم الى مرتبة الألوهية أو النبوة للاله •• وبين الذين كذبوهم واتهموهم وصبوا عليهم العذاب • فالأنبياء بشر مثلنا ، يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، ويمتهنون الحرف ، ولكثير منهم أزواج وذرية ، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق أن الله منّ عليهم بالوحى ، وأيدهم بالمعجزات :

« قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » • (ابراهيم : ١١)

٦ — وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرا لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون الا بالوحى والالهام ، ولا يعترفون للعقل بدور واضح • فالاسلام يؤمن بالعقل ، ويدعوه للنظر والتفكير ، وينكر عليه الجمود والتقليد ، ويخاطبه بالأوامر والنواهى • ولكنه يؤمن بالوحى ، مكملا للعقل ، ومعينا له فيما تضل فيه العقول وتختلف ، وما تتغلب عليه الأهواء ، وهاديا له الى ما ليس من اختصاصه ولا هو فى مقدوره من الغيبيات :

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ، وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون »• (الروم : ٨)

* * *

ثانيا — وسطية الاسلام فى العبادات :

والاسلام وسط فى عباداته وشعائره بين الأديان والعقائد التى ألغت الجانب الربانى من فلسفتها وواجباتها ، « كالبوذية » التى اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقى الانسانى وحده .. وبين الأديان والعقائد التى طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والانتاج ، « كالرهبانية » المسيحية .

فالاسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة فى اليوم كالصلاة ، أو فى السنة كالصوم ، أو فى العمر مرة كالحج ، ليظل دائما موصولا بالله ، غير مقطوع عن رضاه ، ثم يطلقه بعد ذلك ساعيا منتجا ، يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من رزق الله بكده وكفاحه . ولعل أوضح دليل نذكره هنا الآيات الآمرة بصلاة الجمعة :

« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » . (الجمعة : ٩ — ١٠)

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى فى يوم الجمعة .. بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة ، ثم سعى الى ذكر الله والى الصلاة وترك للبيع والشراء وغيره من مشاغل الحياة . ثم انتشار فى الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة ، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيرا فى كل حال ، فهو أساس الفلاح والنجاح .

* * *

ثالثا — وسطية الاسلام فى الأخلاق :

١ — الاسلام وسط فى الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الانسان ملاكا أو شبه ملاك ، فوضعوا له من القيم والآداب ما يفوق طاقته وينوء به كاهله ، فهم قد أحسنوا الظن بالفطرة الانسانية فاعتبروها خيرا محضا .. وبين غلاة الواقعيين ، الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان ،

فأرادوا له من السلوك ما لا يليق بانسانيته ، وتركوه لينطلق كيف يشاء ، وهم قد أساءوا الظن بالفطرة الانسانية ، فعدوها شرا خالصا .. وكانت نظرة الاسلام وسط بين أولئك وهؤلاء ..

فالانسان فى نظر الاسلام مخلوق مركب .. فيه العقل ، وفيه الشهوة ، فيه غريزة الحيوان ، وروحانية الملاك ، قد هدى النجدين ، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين ، اما شاكرا واما كفورا ، فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى ، ومهمته جهاد نفسه وترويضها حتى تتزكى :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . (الشمس : ٧ — ١٠)

٢ — والاسلام كذلك وسط فى نظرته الى حقيقة الانسان بين العقائد والمذاهب التى تقوم على اعتباره روحا علويا سجن فى جسد أرضى ، ولا يصفو هذا الروح أو يسمو الا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه .. وبين المذاهب المادية التى تعتبر الانسان جسدا محضا ، وكيانا ماديا بحتا ، لا يسكنه روح علوى ، ولا يختص بأى نغمة سماوية .. أما الانسان فى الاسلام فهو كيان روحى ومادى ، كما يشير الى ذلك خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . فقد خلقه الله من تراب أو صلصال أى أصل مادى لبدن الانسان ، ثم أودع الله فى هذه المادة شيئا آخر ، هو سر تميز الانسان ، ومنبع كرامته ، وهو الروح . وفيه يقول سبحانه للملائكة :

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .
(الحجر : ٢٩)

وما دام الانسان مؤلفا من الروح والبدن ، فان لروحه عليه حقا ، كما أن لبدنه عليه حقا .

٣ — والاسلام وسط فى النظرة الى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة . واعتبروا أن الحياة الدنيا هى كل شىء :

« وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .
(الأنعام : ٢٩)

وبذلك غرقوا فى الشهوات ، وانقادوا لملذاتهم وأهوائهم ، ولم يعرفوا لهم هدفا يركضون وراءه غير المنافع الدنيوية الفردية العاجلة .. وبين الذين رفضوا هـذه الحياة ، وألغوا اعتبارها من وجودهم لأنها شر يجب مقاومته والفرار منه ، فحرموا على أنفسهم طيباتها ، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها ، والانقطاع عن عمارتها والانتاج لها .

فالاسلام يعتبر الحياتين ، ويجمع بين الحسنيين ، ويجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ويرى العمل فى عمارتها عبادة لله ، وأداء لرسـالة الانسان . وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات ، كما ينكر على الآخرين انهماكهم فى الترف والشهوات . بقول الله تعالى :

● **« .. والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »** . (محمد : ١٢)

● **« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسـجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. »** . (الأعراف : ٣١ — ٣٢)

● **« فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »** . (آل عمران : ١٤٨)

٤ — ومن أبرز مظاهر الوسطية أو التوازن فى رسـالة الاسلام « التوازن بين الروحية والمـادية » ، أى بين الدين والدنيا .. فلقد وجدت فى التاريخ جماعات وأفراد كل همهم اشـباع الجانب المـادى فى الانسان ، دون التفات الى الجوانب الأخرى :

« وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .

(الأنعام : ٢٩)

وهذه النزعة المغالية فى المـادية جديرة بأن تولد الطغيان والتكالب على متاع الحياة الدنيا ، والغرور والاستكبار — عند النعمة ، واليأس والقنوط عند الشدة . ونرى ذلك واضحا فيما قصه الله علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها ، ولم يلقوا للدين بالا ، ولا للآخرة حسابا ، ولا للروح مكانا .. فهذا قارون الذى بغى على

قومه واغتر بماله وعزا الفضل فيه الى نفسه ، فخسف الله به وبداره الأرض • وهـذا فرعون الذي بغي وطغى وافترى فأغرقه الله هو ومن تبعه من قومه • وغير هؤلاء من الأمم التى أترفت فى الحياة فقتلها الترف ، وحقت عليهـا كلمة العـذاب ، وحرمت نصر الله وعونه • قال تعـالى :

● « **حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون • لا تجأروا اليوم ، انكم منا لا تنصرون • قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون** » • (المؤمنون : ٦٤ — ٦٦) .

● « **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين • فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون • لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون** » • (الأنبياء : ١١ — ١٣)

— وفى الطرف المقابل لهـذه النزعة المـادية وأصحابها ، وجد آخرون من الأفراد والجماعات نظروا الى الدنيا نظرة عداوة وتجاهل • فحرموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها ، وعطلوا قواهم من عمارتها أو الاسهام فى تنميتها ورقيها والكشف عما أودع الله فيها • وعرف ذلك فى برهمية الهند ، وبدا بوضوح وجلاء فى نظام الرهبانية • وأصبح الشـائع فى مفهوم هؤلاء الناس عن التدين الحق أنه الانقطاع عن العالم ، والتفرغ للعبادة ، والتقشف دون تمتع بمباهج الحياة ، والتبطل بلا عمل ، والتبتل بلا زواج ، والتعبد ليل نهار •

— وبين هاتين النزعتين قام الاسلام يدعو الى التوازن والاعتدال ، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الانسان ، وحقيقة الحياة •• فالانسان — بعنصره المادى — قادر على أن يسعى فى الأرض ويعمرها ، ويكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم ، ويسخر امكاناتها — باذن الله — لمنفعته ونفع البشرية • والانسان — بعنصره الروحى — مهيأ للتحليق فى أفق أعلى ، والتطلع الى عالم أرقى ، والى حياة هى خير وأبقى • وبهذا يسخر المـادة دون أن تسخره ، ويستخدم ما على الأرض من خيرات دون أن تستعبده • ان الأرض وما عليها خلقت له ، أما هو فقد خلق لله •• لعبادته ومعرفته وطاعته واحسان الصلة به •

والقرآن الكريم يدعو الى العمل للحياة ، والضرب فى الأرض ، والسعى فى مناكبها ، والاستمتاع بطيباتها ، الى جانب الحث على الاستعداد للآخرة ، والتزود ليوم الحساب ، وذلك بالايمان والعبادة وحسن الصلة بالله ، ودوام ذكره فى السراء والضراء ، فبذكر الله تطمئن القلوب • قال تعالى :

● **« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين • وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »** •

(المائدة : ٨٧ — ٨٨)

● **« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور »** • (الملك : ١٥)

● **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** • (الجمعة : ١٠)

● **« وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين »** • (القصص : ٧٧)

والرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يحرمها على نفسه ، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه ، ولا محور تفكيره ، وكان من دعائه :

« اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » •

(رواه الترمذى)

فكان يعطى للدنيا حقها وللآخرة حقها ، بالقسطاس المستقيم ، وكان من دعائه :

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » •

(رواه مسلم)

فهذا الدعاء النبوى المأثور يبين موقف المسلم من الدين والدنيا والآخرة ، انه يطلبها جميعا ، ويسأل الله أن يصلحها له جميعا ، اذ لا غنى له عن واحد منها .. فالدين عصمة أمره ، والدنيا فيها معاشه ومتاعه الى حين ، والآخرة اليها معاده ومصيره .

وكان ﷺ حريصا على توجيه أصحابه الى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم ، بين حظ أنفسهم وحق ربهم ، بين متعة البدن ونعيم الروح . فاذا رأى فى بعضهم غلوا فى جانب قومه بالحكمة ورده الى سواء السبيل . ولما رأى فى بعض أصحابه افراطا فى التعبد والصيام والقيام ، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه قال له « ان لبدنك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لزورك — يعنى زوارك وضيوفك — عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه » . (رواه البخارى)

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر ، والتزم الثانى أن يقوم فلا ينام ، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدا — قال لهم : « أما انى أخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر . وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (رواه البخارى)

* * *

رابعا — وسطية الاسلام فى التشريع :

والاسلام كذلك وسط فى تشريعه ونظامه القانونى والاجتماعى :

١ — فهو وسط فى التحريم والتحليل بين اليهودية التى أسرفت فى التحريم ، وبين المسيحية التى أسرفت فى الاباحة .. فالاسلام قد أحل وحرم ، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق البشر ، بل من حق الله وحده ، ولم يحرم الا الخبيث الضار ، كما لم يحل الا الطيب النافع . ولذلك كان من أوصاف الرسول — عليه الصلاة والسلام — عند أهل الكتاب أنه :

« .. يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم .. »
(الأعراف : ١٥٧)

٢ — والتشريع الاسلامى وسط فى شئون الأسرة ، كما هو وسط فى شئونه كلها ، وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات دون قيد ، وبين الذين رفضوه وأنكروه ، ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة .. فقد شرع الاسلام هذا الزواج بشرط القدرة على الاحصان والانفاق والثقة والعدل بين الزوجتين ، فان خاف الزوج ألا يعدل ألزمه الاقتصار على واحدة ، كما قال تعالى : « .. **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة** .. » . (النساء : ٣)

٣ — وهو وسط فى الطلاق بين الذين حرموا الطلاق لأى سبب كان، ولو استحالت الحياة الزوجية الى جحيم لا يطاق « كالكاثوليك » .. وبين الذين أرخوا العنان فى أمر الطلاق ، فلم يقيدوه بقيد أو شرط .. أما الاسلام فقد شرع الطلاق عندما تفشل كل وسائل العلاج الأخرى ، بحيث لا يجدى تحكيم أو اصلاح . ومع هذا فهو أبغض الحلال الى الله ، ويستطيع المطلق مرة ومرة أن يراجع مطلقته ويعيدها الى حظيرة الزوجية من جديد ، كما قال تعالى :

« **الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان** .. » .
(البقرة : ٢٢٩)

٤ — وفى النظام الاسلامى تلتقى الفردية والجماعية فى صورة متزنة ، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات ، وتتوزع فيها المكاسب والتبعات بالقسطاس المستقيم .. **فبالنسبة للفرد :**

(ا) لقد قرر الاسلام حرمة الدم ، فحفظ للفرد « حق الحياة » ، وأعلن القرآن أن :

« .. **من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** .. »
(المائدة : ٣٢)

وأوجبت الشريعة فى قتل العمد القصاص ، الا أن يعفو أولياء المقتول ، أو يقبلوا بدلا ، وأوجبت فى قتل الخطأ الدية والكفارة .

(ب) وقرر الاسلام حرمة العرض ، فصان للفرد « حق الكرامة » ، فلا يجوز أن يهان فى حضرته ، أو يؤذى في غيبته ، بأية كلمة أو اشارة تسوءه • قال تعـالى :

● **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقـاب ٠٠ »** • (الحجرات : ١١)

● **« ٠٠ ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحـم أخيـه ميتا فكرهتموه ٠٠ »** • (الحجرات : ١٢)

(جـ) وقرر حرمة المال ، فصان للفرد « حق التملك » ، فلا يحـل أخذ ماله الا برغبته وموافقته ، ولا يجوز للدولة أو لفرد آخر أن ينهب ماله ويأخذه بغير حق • قال النبى عليه الصلاة والسلام فى حجـة الوداع :

« ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هـذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا » • (رواه مسلم)

(د) وقرر الاسلام للفرد « حرية العقيدة » ، فلا يجوز أن يكره على ترك دينه واعتناق دين آخر • قال تعالى :

● **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ٠٠ »**

(البقرة : ٢٥٦)

● **« ٠٠ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »** •

(يونس : ٩٩)

(هـ) وقرر الاسلام « حرية الرأى والفكر » ٠٠ فمن حق كل انسان — بل من واجبه — أن يفكر وينظر • فقد أمر الاسلام الناس أن يفكروا • وما دام التفكير واجبا وحقا لكل بشر ، فمن حق كل مفكر أن يخطىء حتى يتعلم من خطئه ، ولا لوم عليه فى ذلك ، ما دام لا يقصد الخطأ أو يتعمده • ان الاسلام لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر وان أخطأ اصابة الحقيقة • قال تعـالى :

● **« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ٠٠ »** •

(العنكبوت : ٢٠)

● **« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »** • (الحج : ٤٦)

● **« ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »** •
(الأنفال : ٢٢)

وفى الحديث النبوى الشريف :
«المجتهد اذا أخطأ فله أجر ، وان أصاب فله أجران» • (متفق عليه)
وفى ظل هذه الحرية الفكرية ظهرت المدارس الفكرية المختلفة فى الفقه والتفسير والكلام وغيرها •

(و) وقرر الاسلام « المسئولية الفردية » ، وأكدها تأكيدا بليغا فى كتابه الكريم :

● **« كل نفس بما كسبت رهينة »** • (المدثر : ٣٨)

● **« لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ٠٠ »** • (البقرة : ٢٨٦)

● **« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ٠٠ »** • (الاسراء : ١٥)

ومع هذه الحقوق والحريات التى منحها الاسلام للفرد ، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد الحقوق والحريات الفردية بأن تكون فى اطار مصلحة الجماعة ، وألا يكون فيها ضرر للغير ، فلا ضرر ولا ضرار فى الاسلام ، كما أن حق الفرد اذا تعارض مع حقوق الجماعة فان حق الجماعة أولى بالتقديم • **فبالنسبة للجماعة :**

(ا) « فالحياة » التى صانها الاسلام للفرد ، اذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب على المسلم أن يقدمها راضى النفس ، قرير العين ، معتقدا أن الموت هنا هو عين الحياة • وكذلك اذا اعتدى على حق نفس أخرى — كقاتل العمد ، أو على حق المجتمع فى الأمن والاستقرار — كقاطع الطريق — أو خرج على دينه وفارق الجماعة — كالمرتد — فقدت حياته مالها من عصمة •

(ب) وملكيـــة الفرد للمال ليست مطلقة ، بل هى مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع ، حتى أن انتزاع هـــذا الملك من صاحبه يجوز للمصلحة العامة ، على أن يعوض عنه ثمن المثل ، فالمـــال مال الله ، وهو مستخلف فيه • فالفرد وكيل الجماعة فى رعاية المـــال وتنميته وانفاقه . فاذا أساء التصرف فى المـــال ، كان من حق الجماعة أن تغل يده وتحجر عليه • كما أن للجماعة على الفرد حقوقا فى المـــال ، بعضها دورى ثابت كالزكاة بأنواعها ، وبعضها غير دورى كما فى الحديث : « ان فى المـــال حقا سوى الزكاة » • (رواه الترمذى)

(جـ) والحريات والحقوق كلهـــا مقيدة برعاية أخلاقيات المجتمع ومثله وعقائده • فليس معنى حرية العقيـــدة أو الرأى اباحة الطعن والهجوم على الاسلام وأهله ، واشاعة الكفر بالله وكتابه ورسوله ، والتشكيك فى القيم العليا ، ونشر الفجور ، فان حرية الافساد لا يقرها عقل ولا شرع •

(د) ومع المسئولية الفردية التى أكدها الاسلام ، نراه قد أكد كذلك مسئولية الفرد عن الجماعة ، فكل فرد فى المجتمع المسلم راع فى مجال من المجالات ، كما فى الحديث الصحيح : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ••» (رواه الترمذى) وفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقتضى مسئولية المسلم عن المجتمع ، وتوجب عليه مراقبة أحواله ، وتقويم عوجه بقدر استطاعته •

(هـ) والمسلمون مسئولون بالتضامن عن تنفيذ شريعة الاسلام واقامة حدوده ، ومن هنا كان خطاب التكليف فى القرآن الى الجماعة ، وتكرر قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا** » بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل بين الجماعة فى تنفيذ ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه • لقد خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى :

- « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ••» •

(المـــائدة : ٣٨)

- « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** •• » •

(النور : ٢)

وان كان الذى يقوم على هـذه الحدود هو الدولة والحكام ، لأن الجماعة كلها مسئولة عن اقامتها .

(و) والعبادة التى هى صلة بين العبد وربه ، أبى الاسلام الا أن يضفى عليها روحا جماعية وصبغة جماعية ، فدعا الى صلاة الجماعة ورغب فيها ، حتى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده بسبع وعشرين درجة . واذا صلى المسلم منفردا فى خلوة لم تزل الجماعة فى وجدانه وضميره ، فهو اذا ناجى الله ناجاه بصيغة الجمع ، واذا دعاه دعاه باسـم الجميع :

« اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم » .

(الفاتحة : ٥ ــ ٦)

كما شرع الاسلام صلاة الجمعة مرة كل أسبوع ، وصلاة العيد فى كل عام مرتين ، وفرض الحج فى العمر مرة على كل مسلم قادر ، وكلها شعائر لابد أن تؤدى فى صورة جماعية .

(ز) وفى مجال الآداب والتقاليد ، حث الاسلام على العديد من الآداب الاجتماعية ، أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية والانعزالية .. فتحية الاسلام ، والمصافحة عند اللقاء ، والتزاور والتهادى ، وعيادة المريض ، ومواساة المصاب ، وصلة الأرحام ، واحسان الجوار ، واكرام الضيف ، والبر باليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وغيرها ، هى التى جعلت الشـعور الجماعى ، والتفكير الجماعى ، والسلوك الجماعى ، جزءاً لا يتجزأ من حياة المسـلم .

(ح) وفى مجال الأخلاق ، حث الاسـلام على المحبة والاخاء والايثار ، وأمر بالتعاون على البر والتقوى ، ودعا الى توحيد الكلمة وجمع الصفوف ، كما دعا الى التراحم والتسامح ، والى البذل والتضحية ، واحترام النظام ، والطاعة لأولى الأمر فى المعروف .

هـذا الى جانب التحذير من البغضاء والحسد والحقد ، والفرقة والتنازع ، وسائر الرذائل التى تنشأ عن الأنانية والمغالاة فى حب الذات وحب الشهوات .

* * *

ديـــن العـــدل

من أهم دعائم السعادة التى يسعى اليها البشر أن يطمئن الناس على حقوقهم ، وأن يستقر العدل فيما بينهم • وليس هناك شىء أبعث للشقاء والفتن واثارة للقلق وعدم الاطمئنان بين الأفراد والجماعات ، من سلب الحقوق ، واغتيال الأقوياء حقوق الضعفاء ، وتسلط الطغاة على الآمنين المسالمين • وما من شك فى أن هذه الظواهر — التى ينحرف بها أهلهـــا من سنن الله ونظامه فى كونه — أشد ما يقطع الصلات ، ويغرس الأحقاد ، ويثير أعاصير الكيد والانتقام ، ويهـــدد المجتمع بالأخطار التى تحمـــل الناس ما لا طاقة لهم ، من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد [٣] •

● مكانة العدل فى القرآن والسنة :

ولقد كان أول ما قرره الاسلام حفظا لكيان المجتمع البشرى ، مبدأ العدل بين الناس •• عنى به القرآن الكريم ، وأمر به عاما وخاصا ، حتى مع الأعداء الذين يحملون لنا ونحمل لهم من البغضاء ما تنوء بحمله القلوب . قال تعـــالى :

● **« •• ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى •• »** • (المـــائدة : ٨)

● **« ان الله يأمر بالعدل والاحسان •• »** • (النحل : ٩٠)

● **« •• واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى •• »** •

(الأنعام : ١٥٢)

لقد أمر القرآن الكريم بالعدل هكذا أمرا عاما ، دون تخصيص بنوع دون نوع ، ولا بطائفة دون طائفة ، لأن العدل نظام الله وشرعه ، والناس عباده وخلقه ، يستوون — دون تفرقة بين أبيض وأســـود ، أو عربى وأعجمى ، أو ذكر وأنثى — أمام عدله وحكمه ، قال تعالى :

---

(٣) محمود شلتوت ، **الاسلام عقيدة وشريعة** « ط ٨ » • (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٥) ، ص ٤٤٤ — ٤٤٥ •

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا • ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » •
(النساء : ١٢٣ — ١٢٤)

لقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل بين الجميع . ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، قال تعالى :

« •• ان أكرمكم عند الله أتقاكم •• » • (الحجرات : ١٣)

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » • (الكهف : ٤٦)

ان العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات الى الله تعالى •• العدالة فى كل شىء ، أى العدالة فى الأقوال والأفعال والسلوك عامة •• وليس فى الاسلام طبقية فلا يكرم الغنى لغناه ، كما لا يعرف التفرقة العنصرية ، فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى • يقول تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » •
(الحجرات : ١٣)

« •• ألا لعنة الله على الظالمين » • (هود : ١٨)

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » •
(الكهف : ٥٩)

ومن العدالة المعاملة بالمثل ، فمن اعتدى علينا قاومناه بكل ما لدينا من قوة • قال تعالى :

« •• فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم •• » •
(البقرة : ١٩٤)

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » • (النحل : ١٢٦)

وأمرنا الاسلام عند المعاملة بالمثل أن نتمسك بالأخلاق الحميدة ، فاذا كان العـدو يقتل الذرية لا نقتلها ، وان كان يدمر ديار الآمنين لا ندمرها ما أمكن ، واذا كان ينتهك الأعراض لا ننتهكها نحن ، وهكذا • والوفاء بالعهد عدالة لأنه فى ذاته قوة • قال تعالى :

« •• وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » •

(الأنعام : ١٥٢)

« •• وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسـئولا » •

(الاسراء : ٣٤)

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا •• » • (النحل : ٩١)

ومن الحديث النبوى الشريف فى النهى عن الظلم :

ـ « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام » • (رواه الطبرانى وأحمد)

ـ « لعن الله من رأى مظلوما فلم ينصره » • (رواه الديلمى)

ـ « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » •

(رواه أحمد)

ـ « دعوة المظلوم مستجابة وان كان فاجرا ، ففجوره على نفسـه » • (رواه أحمد)

* * *

العـدالة الاجتماعية فى الاسـلام

الاسلام دين الوحدة بين القوى الكونية جميعا ، فلا جرم هو دين التوحيد •• توحيد الاله ، وتوحيد الأديان جميعا فى دين الله ، وتوحيد الرسل فى التبشير لهذا الدين الواحد منذ فجر الحياة • قال تعالى :

« ان هـذه أمتكم أمة واحـدة وأنا ربكم فاعبدون » •

(الأنبياء : ٩٢)

والاسلام دين الوحدة بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والشريعة ، والماديات والروحانيات ، والقيم الاقتصادية والقيم المعنوية ، والدنيا والآخرة .. وعن تلك الوحدة الكبرى تصدر تشريعاته وفرائضه ، وتوجيهاته وحدوده ، وقواعده فى سياسة الحكم وسياسة المال ، وفى الحقوق والواجبات ، وفى ذلك الأصل الكبير تنطوى سائر الأجزاء والتفصيلات .

وحين ندرك هذا الشمول فى طبيعة النظرة الاسلامية للألوهية والكون والحياة والانسان ، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة الاجتماعية فى الاسلام .. فهى قبل كل شىء عدالة اجتماعية شاملة لكل جوانب الحياة الانسانية ومقوماتها ، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة . فهى تتناول جميع مظاهر الحياة ومناشطها ، كما تتناول الشعور والسلوك والضمائر والوجدانات . والقيم التى تتناولها هذه العدالة ليست القيم الاقتصادية وحدها ، وليست القيم المادية فحسب ، انما هى القيم المادية ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية .

ثم ان الحياة فى نظر الاسلام تراحم وتواد وتعاون وتكافل محدد الأسس مقرر النظم ، بين المسلمين على وجه خاص ، وبين جميع أفراد الانسانية على وجه عام . ان الاسلام هو حلم الانسانية الخالد ، مجسما فى حقيقة تعيش على الأرض .

على هذين الخطين الكبيرين : الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة ، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات ، يسير الاسلام فى تحقيق العدالة الاجتماعية ، مراعيا العناصر الأساسية فى فطرة الانسانية ، غير متجاهل كذلك للطاقة البشرية .

يقول القرآن الكريم عن الانسان : « **وانه لحب الخير لشديد** » .
(العاديات : ٨)

حب الخير لذاته ولما يتصل بذاته . ويقول فى وصف الانسان بالبخل فطرة وطبعا : « .. **وأحضرت الأنفس الشح** .. » .
(النساء : ١٢٨)

ووردت فيه صورة فنية معجبة لهذه الفطرة البشرية العجيبة :
« قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذن لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتورا » . (الاسراء : ١٠٠)

على حين يقرر أن رحمة الله وسعت كل شيء . فيبرز بهذه السعة وبذلك الامساك مدى الشح فى فطرة الانسان لو ترك بلا توجيه أو تهذيب .

وعندما يضع الاسلام نظمه وتشريعاته وتوجيهاته ، لا يغفل ذلك الحب الفطرى للذات ، ولا ينسى ذلك الشح الفطرى العميق ، ولكنه يعالج الأثرة ، ويعالج الشح ، بالتوجيه وبالتشريع .. فلا يكلف الانسان الا وسعه ، ولا يغفل فى الوقت ذاته حاجات الجماعة ومصالحها وغايات الحياة العليا فى الفرد والجماعة على توالى العصور والأجيال (٤) .

واذا كان من الظلم الاجتماعى الذى يتنافى مع العدالة أن تطغى مطامح الفرد ومطامعه على الجماعة ، فانه من الظلم كذلك أن تطغى الجماعة على فطرة الفرد وطاقته .. انه من الظلم لا لهذا الفرد وحده ، بل للجماعة ذاتها . فتحطيم نشاط الفرد لا يقف أثره السيء عند حرمان هذا الفرد ما هو حق له ، بل يتجاوزه الى حرمان الجماعة أن تنتفع بكامل طاقته . ومتى كفل النظام للجماعة حقها فى جهد الفرد وطاقته ، ووضع لحرية الفرد وأطماعه الحدود الكابحة ، فلا ينبغى أن يغفل حق الفرد فى انطلاق نشاطه ، فى الحدود التى لا تضار بها الجماعة ، ولا يضار بها الفرد ذاته ، ولا تصطدم بأهداف الحياة العليا .. فالحياة تعاون وتكافل فى نظر الاسلام ، كما أنها اطلاق للطاقات الفردية والعامة . وكل ما ليس حراما فهو مباح ، والمرء يثاب على كل نشاط حيوى فى حدود منهج الله وشرعه يراعى فيه وجه الله وحده ، ويحقق به الغايات العليا للحياة كما ارتضاها الله .

---

(٤) سيد قطب ، **العدالة الاجتماعية فى الاسلام** (ط ٩) . (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣) ، ص ٢٦ — ٢٧ .

واقد قرر الاسلام مبدأ تكافؤ الفرص ، ومبدأ العدل بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، ثم جعل القيم الأصيلة فى المجتمع المسلم قيما أخرى غير القيم الاقتصادية • قال تعالى :

● « •• **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** •• » • (الحجرات : ١٣)

● « •• **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** •• » • (المجادلة : ١١)

● « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » • (الكهف : ٤٦)

وهكذا يبدو أن هناك قيما أخرى ، غير القيم الاقتصادية البحتة ، يحسب الاسلام حسابها ، ويجعلها هى القيم الحقيقية ، ويجعل منها وسيلة للتعادل فى المجتمع حين تتفاوت الأرزاق المالية بين الناس ، بأسباب التفاوت المعقولة القائمة على الجهد والموهبة ، وليس على الوسائل المنكرة التى يحرمها الاسلام تحريما •

ان العدل المطلق يقتضى أن تتفاوت الأرزاق ، وأن يفضل بعض الناس بعضا فيها ، مع تحقق العدالة الانسانية ، باتاحة الفرص المتساوية للجميع •• فلا يقف أمام فرد حسب ولا نشأة ، ولا أصل أو جنس ، ولا قيد واحد من القيود التى تغل الجهود ، وبتحرير الوجدان البشرى تحريرا كاملا من ضغط القيم الاقتصادية البحتة ، ووضع هذه القيم فى مكانها الحقيقى المعقول •

ان الاسلام يحتم الكفاية لكل فرد ، ويفضل أن تكون هذه الكفاية عن طريق الملكية الفردية أو العمل المنتج بأنواعه ، ويحرم الترف الذى يطلق العنان للمتاع والشهوات ويقيم الفوارق الشاسعة فى مستويات الحياة • كما أنه يرتب فى الأموال حقوقا للفقراء بقدر حاجتهم ، ويقدر ما يصلح للمجتمع ويضمن له التكافؤ والتعادل والنمو •• وبذلك لا يغفل الاسلام جانبا واحدا من جوانب الحياة المادية والشعورية ، الدينية والدنيوية ، حتى تنصهر هذه الجوانب كلها وتصبح وحدة متماسكة ،

يصعب اهمال عنصر من عناصرها الممتزجة المتناسقة ، ولتنسق وحدتها مع وحدة الكون الكبير ، ووحدة الحياة والانسان •

* * *

● أسس العدالة الاجتماعية فى الاسلام :

يقيم الاسلام هـذه العدالة الاجتماعية على أسس ثابتة ، ويحدد لبلوغ أهدافها وسائل معينة •• فلا يدعها قضية غامضة ، ولا دعوة مجملة ، حيث ان الاسلام بطبيعته دين تنفيذ وعمل فى واقع الحياة ، لا دين دعوة وارشاد مجردين فى عالم المثاليات •• ان الواقع الذى يعده الاسلام حقيقة ليس واقع فرد ، ولا واقع أمة ، ولا واقع جيل •• انما يمد ببصره الى جميع الآفاق ، ويحسب حسابا لجميع المصالح ، ويستهدف تحقيق غاية تشمل الانسانية كلها •• وهذه النظرة الكلية بعيدة الأهداف الى العدالة الاجتماعية ، هى التى تفسر لنا نظما عـدة فى الاسلام ، فهى التى تفسر لنا نظام الملكية الفردية ، ونظام الارث ، ونظام الزكاة ، ونظام المعاملات ، ونظام الحكم •• الى آخر ما يتضمنه الاسلام من نظم تتناول الأفراد والجماعات والأمم والأجيال •

ولسنا هنا بصدد الحديث عن ذلك كله ، فسنقتصر على تناول الأسس العامة التى أقام عليها الاسلام بناء العدالة الاجتماعية فى حدود فكرته الكلية • وسنرى من طبيعتها أن الاسلام قد نظر الى وحدة الروح والجسد فى الفرد ، والى وحدة المعنويات والمـاديات فى الحياة • كما نظر الى وحدة الهدف بين الفرد والجماعة ، ووحدة المصلحة بين الجماعات المختلفة فى الأمة الواحدة ، ووحدة الغاية بين الأمم الانسانية ، ووحـدة الصلة بين الأجيال المتعاقبة على اختلاف المصـالح القريبة المحـدودة •

وهذه الأسس التى أقام عليها الاسـلام العدالة الاجتماعية هى :

- التحرر الوجدانى المطلق •
- المساواة الانسانية الكاملة •
- التكافل الاجتماعى الوثيق •

وسنناقش هـذه الأسس فيما يأتى [٥] :

أولا — التحـرر الوجـدانى :

لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والاستمرار والبقاء ، ما لم تستند الى شعور نفسى باطنى باستحقاق الفرد لها ، وبحاجة الجماعة اليها ، وبعقيدة فى أنها تؤدى الى طاعة الله والى واقع انسانى أسمى • وما لم تستند كذلك الى واقع مادى يهيىء للفرد أن يتمسك بها ويدافع عنها ويحتمل تكاليفها • ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور ، وبالقدرة العملية على استدامة هذا الشعور • ولن تحافظ الجماعة على التشريع ان وجد ، الا وهناك عقيدة تؤيده من الداخل ، وامكانات عملية تؤيده من الخارج •• وهـذا ما نظر اليه الاسلام فى توجيهاته وتشريعاته جميعا •

لقد بدأ الاسلام بتحرير الوجدان البشرى من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع لأحد غير الله • فما لأحد عليه غير الله من سلطان ، وما من أحد يميته أو يحييه الا الله ، وما من أحد يملك له ضرا ولا نفعا ، وما من أحد يرزقه من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع ، والله وحده القادر الذى يستطيع ، والكل سواه عبيد ، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا • قال تعالى :

« قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفواً أحد » • (سورة الاخلاص)

واذا توحد الله توحدت عبادته ، واتجه اليه الجميع فلا عبادة لسواه ، كى لا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، ولا يكون لأحد منهم فضل على أحد الا بعمله وتقواه :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله •• » •

(آل عمران : ٦٤)

---

(٥) سيد قطب ، **المرجع السـابق** ، ص ٣٢ — ٦٢

ويحرص الاسلام على هذا المعنى حرصا شديدا ، فيركز عليه القرآن الكريم فى مناسبات شتى . ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه اليهم الناس بشىء من العبادة ، أو ما فى معناها على وجه من الوجوه ، فقد عنى الاسلام بتحرير وجدان البشرية من هذه الناحية تحريرا كاملا . فيقول عن نبيه محمد ﷺ :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم .. » . (آل عمران : ١٤٤)

ويخاطب النبى محمد فى صراحة قوية :

« ليس لك من الأمر شىء .. » . (آل عمران : ١٢٨)

كما يخاطبه فى موضع آخر بما يشبه التهديد :

« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » .

(الاسراء : ٧٤ — ٧٥)

وكان ذلك بشأن محاولات المشركين مع الرسول الكريم لفتنته عما أوحى الله اليه . ولقد حاولوا هذه المحاولة فى صور شتى .. منها مساومتهم له أن يعبدوا الهه فى مقابل أن يترك انتقديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم .. ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراما كالبيت العتيق الذى حرمه الله . ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء .. والنص القرآنى يشير الى هذه المحاولات ولا يفصلها ، ليذكر فضل الله على رسوله فى تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة . ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن اليهم فاتخذوه خليلا ، وللقى عاقبة الى فتنة المشركين ، وهى مضاعفة العذاب فى الحياة وبعد الممات ، دون أن يجد له نصيرا منهم يعصمه من الله [٦] .

---

[٦] سيد قطب ، **فى ظلال القرآن** . « ج ٤ » . (القاهرة ، دار الشروق ، « ط ٨ » ، ١٩٧٩) ، ص ٢٢٤٥ .

كما يدعوه القرآن الكريم الى أن يجهر بحقيقة موقفه :

« قل انما أدعوا ربى ولا أشرك به أحدا • قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشداً • قل انى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحـــدا » • (الجن : ٢٠ — ٢٢)

ويتحدث القرآن الكريم عمن ألهوا عيسى ابن مريـــم ، فيصمهم بالكفر :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسـيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شـيئا ان أراد أن يهلك المسـيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا •• » • (المـائدة : ١٧)

ويقول عن المسيح فى موضع آخر :

« ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل » •

(الزخرف : ٥٩)

كما يعرض صورة من تأليه العباد للعباد ، تتمثل فى تلقى الشرائع منهم ، وجعلهم بذلك أربابا ولو لم يعتقدوا بألوهيتهم أو يقدموا لهـــم شعائر العبادة :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون »•

(التوبة : ٣١)

وهكذا يستمر القرآن الكريم فى توكيد هذه العقيـــدة وتثبيتهـــا وتوضيحها ، ليصـــل الى تحرير الوجدان البشرى من كل شبهة شرك قد تضغط هذا الوجدان ، وتخضعه لمخلوق من عباد الله ، ان يكن نبيا أو رسولا ، فانه عبد من عباده • واذا انتفى أن يكون عبد بذاته مميز عند الله من عبد بذاته ، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعا ، فلا كهانـــة ولا وساطة ، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه ، يستمد منه القوة والعزة والشجاعة ، ويشعر برحمة الله وعنايته وعطفه ، فيشتد ايمانـــه وتقوى معنوياته •

والاسلام حريص كل الحرص على تقوية هذه الصلة ، واشـــعار

الفرد أنه يملك الاستعانة بتلك القوة الكبرى آناء الليل وأطراف النهار . يقـــول تعـــالى :

● **« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .**

(البقرة : ١٨٦)

● **« ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .** (يوسف : ٨٧)

● **« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمـــة الله ، أن الله يغفر الذنوب جميعا » .** (الزمر : ٥٣)

فاذا تحرر الوجدان من شعور العبادة والخضوع لعبد من عبـــاد الله ، وامتلأ الشعور بأنه على اتصال كامل بالله ، لم يتأثر بشـــعور الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة .. وهو شعور خبيث يغض من احساس الفرد بنفسه ، وقد يدعوه الى قبول الذل والتنازل عن كثير من حقوقه وكرامته .. ولكن الاسلام لشدة حرصه على أن يحقق للناس العزة والكرامة . وأن يبث فى نفوسهم الاعتزاز بالحق والمحافظة على العدل ، وأن يضمن بذلك كله — علاوة على التشريع — عدالة اجتماعيـــة مطلقة . لا يفرط فيها انسان .. لهذا كله يعنى الاسلام عناية خاصـــة بأن يقاوم الشعور بالخوف على الحياة وعلى الرزق وعلى المكانة ، فالحياة بيد الله ، وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة ، كما أن النفع والضر بيد الخالق — سبحانه — دون سواه ، قال تعالى :

● **« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله ، كتابا مؤجلا .. » .**

(آل عمران : ١٤٥)

● **« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .** (التوبة : ٥١)

● **« قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله » لكل أمة أجل ، اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » .**

(يونس : ٤٩)

● « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ٠٠ » ٠ (الأنعام : ١٤)

● « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ٠٠ » ٠ (الرعد : ٢٦)

● « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم ٠٠ » (العنكبوت : ٦٠)

● « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ٠٠ » ٠ (يونس : ٣١)

● « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا اله الا هو ، فأنى تؤفكون » ٠ (فاطر : ٣)

● « ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ٠٠ » ٠ (الأنعام : ١٥١)

● « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » ٠ (آل عمران : ٢٦)

وأخيرا فقد تتحرر النفس البشرية من عبودية القداسة ، ومن خوف الموت والأذى والفقر والهوان ، ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيم الاجتماعية ، ثم تبقى مستذلة لذاتها ، مستذلة لشهواتها ومطامعها وأهوائها ، فيأتى لها القيد من داخل حين تنفلت منه من خارج ، فلا تبلغ التحرر الوجدانى الكامل الذى يريده الاسلام لها ، ليحقق لها العدالة الاجتماعية الانسانية الكبرى ٠٠ والاسلام لا يغفل عن هذا الخطر الكامن على التحرر الوجدانى ، فيلقى اليه التفاتة عميقة ، تشهد بعنايته بدخائل النفس البشرية وأغوارها ، وتدل على رعايته لكل استعداداتها وملابساتها ٠ قال تعالى :

● « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب

اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » • (التوبة : ٢٤)

وهكذا يجمع القرآن الكريم فى آية واحدة جميع اللذائذ والمطامح والرغبات ونقط الضعف فى نفس الانسان ، ليضعها فى كفة ، ويضع فى الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيل الله والتخلص من سيطرة الشهوات • فالنفس التى تتحرر من هذا كله هى النفس التى يتطلبها الاسلام ، ويدعو الى تكوينها لتستعلى على الضراوة المذلة ، وتملك قياد أمرها ، وتتنزع الى ما هو أكبر وأبعد مدى من الرغبات الوقتية العابرة •

وفى آية أخرى :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب • قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » •

(آل عمران : ١٤ — ١٥)

وما كان هذا تحذيرا ولا دعوة الى الزهد وترك طيبات الحياة ، انما كان دعوة للتحرر والانطلاق من ضعف الشهوات ، ثم لا ضرر بعد ذلك من الاستمتاع بالحياة حين يملكها الانسان ولا تملكه • قال تعالى :

● **« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق •• »** • (الأعراف : ٣٢)

● **« •• ولا تنس نصيبك من الدنيا •• »** • (القصص : ٧٧)

وقد يتحرر المرء من كل ما يقلل شعوريا من كرامته ، ولكنه يحتاج الى لقمة العيش فيذل ، ولقد يضطر للاستجداء ، فتذهب كرامته كلها ضياعا • هنا يتولى الاسلام الأمر بالتشريع لمنع أسباب الحاجة ولازالتها حين توجد •• فيجعل للفرد حقه فى الكفاية مفروضا على الدولة وعلى المقادرين فى الأمة ، فرضا يعاقب عليه فى الآخرة ويقاتل عليه فى الدنيا •

ثم ينهى عن الاستجداء ، فيصف جماعة من المسلمين ، الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، وصف استحسان بأنهم : **« لا يسألون الناس الحافا »** (البقرة : ٢٧٣) • والنبى ﷺ يعطى سائلا درهما ثم يقول :

« لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » • (رواه الشيخان)

ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » • (رواه الشيخان) •

أما أموال الزكاة فهى حق يؤخذ ، لا فضل يعطى :

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » • (الذاريات : ١٩)

فهى حق تأخذه الدولة لتملكه لأصحابه ، وتنفق منه فى مصالح المسلمين بما يشبع حاجة الجسد ، ويحفظ كرامة النفس ، ويصون عزة الوجدان •

وهكذا يأخذ الاسلام الأمر من وجوهه كلها •• فيكفل التحرر الوجدانى تحررا مطلقا يقوم على الاقتصاديات والمعنويات •• فيعرف للحياة واقعها ، وللنفس طاقتها ، ويدفع الطبيعة البشرية الى التحرر الوجدانى كاملا صريحا • وهذا التحرر هو أحد الأسس الركينة لبناء العدالة الاجتماعية فى الاسلام ••

* * *

ثانيا ــ المساواة الانسانية :

عندما يستشعر الضمير البشرى كل هذا التحرر الوجدانى ، ويجد من الضمانات الواقعية والقانونية ما يؤكد فى نفسه هذا الشعور ، فلن يكون فى حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظا ، وقد استشعرها فى أعماقه معنى ؛ ووجدها فى حياته واقعا • انه لن يصبر على التفاوت القائم فى المجتمع ؛ بل سيطلب حقه فى المساواة ، وسيجاهد لتقرير هذا الحق ، وسيعمل على الاحتفاظ به حين يناله ، ولن يقبل عنه بديلا ،

وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به والذود عنه ، مهما بذل فى ذلك من جهد وتضحية .

ولكن الاسلام مع ذلك لم يكتف بالمفاهيم الضمنية المستفادة من التحرر الوجدانى . فقرر مبدأ المساواة باللفظ والنص ، ليكون كل شىء واضحا مقررا .. ففى الوقت الذى كان البعض يدعى ويصدق أنه من نسل الآلهة ، والبعض يدعى ويصدق أن الدماء التى تجرى فى عروقه هى من الدم الأزرق النبيل ، وفى الوقت الذى كانت بعض الملل تفرق الشعوب الى طبقات ، وفى الوقت الذى كان يدور فيه الجدل حول المرأة ، وفى الوقت الذى يباح فيه للسيد أن يعذب عبيده ويقتلهم لأنهم من طينة أخرى غير طينة السادة .. فى هذا الوقت جاء الاسلام ليقرر وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الحقوق والواجبات ، أمام القانون وأمام الله ، فى الدنيا وفى الآخرة ، لا فضل الا للعمل الصالح .. .. فالاله لم ينسل أحدا :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » . (سورة الاخلاص)

● **« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا أدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »** . (مريم : ٨٨ — ٩٥)

● **« ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . الى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون »** . (المرسلات : ٢٠ — ٢٣)

● **« فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب »** . (الطارق : ٥ — ٧)

● **« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ، ان ذلك على الله يسير »** . (فاطر : ١١)

● **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ٠ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ٠ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين** » ٠ (المؤمنون : ١٢ — ١٤)

وفى هذا المعنى يقول النبى محمد ﷺ :

« أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب » ٠ (رواه مسلم وأبو داوود)

ويتعقب السلام مظان التفاوت والتفاضل — الا بالتقوى والعمل الصالح — فى كل صورها وملابساتها وأسبابها ، ليقضى عليها جميعا ٠٠ فهذا النبى محمد ، ما يفتأ القرآن يذكر الناس أنه بشر كسائر البشر ، وما يفتأ محمد ذاته يكرر هذا المعنى ، خشية أن ينقلب حب قومة له وتبجيلهم اياه الى تأليه أو قدسية لا تكون الا لله سبحانه ، فيقول ﷺ لقومه : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » ٠ (رواه البخارى)

وأما بين الجنسين ، فقد كفل الاسلام للمرأة مساواة تامة مع الرجل من حيث الحقوق الانسانية ، ولم يقرر التفاضل الا فى بعض الملابسات المتعلقة بالاستعداد أو التبعة ، مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الانسانى للجنسين ٠٠

ففى الناحية الدينية والروحية يتساويان ، قال تعالى :

● « **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** » ٠ (النساء : ١٢٤)

● « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » ٠ (النحل : ٩٧)

● « **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ٠٠** » ٠ (آل عمران : ١٩٥)

وفى ناحية الأهلية للملك والتصرف الاقتصادى يتساويان ، قال تعالى :

● « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ٠٠ » ٠ (النساء : ٧)

● «٠٠ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ٠٠» (النساء : ٣٢)

وحسب الاسلام ما كفل للمرأة من مساواة دينية ، ومن مساواة فى التملك والكسب ، وما حقق لها من ضمانات فى الزواج باذنها ورضاها ، دون اكراه أو اهمال ، قال تعالى :

● « ٠٠ فآتوهن أجورهن فريضة ٠٠ » ٠ (النساء : ٢٤)

● « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ٠٠ » ٠ (البقرة : ٢٣١)

وأخيرا فان للجنس البشرى كله كرامته التى لا يجوز أن تستذل ٠ وللناس جميعا — فى المجتمع المسلم — كراماتهم التى لا يجوز أن يسخر منها أحد أو يحط من قدرها ٠ قال تعالى :

● « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ٠ (الاسراء : ٧٠)

● « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » ٠ (الحجرات : ١١)

وللناس جميعا فى المجتمع المسلم حرماتهم ، قال تعالى :

● « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ٠ فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم » ٠ (النور : ٢٧ — ٢٨)

● « ٠٠ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ٠٠ » ٠ (الحجرات : ١٢)

وهكـذا ينتبع الاسـلام كل ناحية من حياة النـاس الوجدانية والاجتماعية ، ليؤكد فيها معنـى المسـاواة • ولم يكن فى حاجة لأن يتحدث عن المسـاواة لفظا وصورة كما أسلفنا ، بعد ماحققها معنى وروحا ، بالتحرر الوجدانى الكامل من جميع القيم وجميع الملابسـات وجميع الضرورات ، وكفل لها فى عالم الواقع كل الضمانات • ولكنه يحرص على المسـاواة حرصا شديدا ، ويريدها انسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا مركز ، كما يريدها أبعد مدى من دائرة الاقتصاديات وحدها ، مما وقفت عنده المذاهب المادية •

* * *

ثالثا ــ التكافل الاجتماعى :

الاسلام يمنح الحرية الفردية فى أجمل صورها ، والمسـاواة الانسانية فى أدق معانيها • ولكنه لا يتركهما فوضى ، فللمجتمع حسابه ، وللانسانية اعتبارها ، وللأهداف العليا للدين قيمتها • لذلك يقرر مبدأ التبعة الفردية ، فى مقابل الحرية الفردية ، ويقرر الى جانبها التبعـة الجماعية التى تشـمل الفرد والجماعة بتكاليفها • وهـذا ما نسميه « بالتكافل الاجتماعى » • فالاسلام يقرر مبدأ التكافل فى كل صوره وأشكاله •• فهناك تكافل بين الفرد وذاته ، وبين الفرد وأسرته ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وبين الجيل والأجيال المتعاقبة •

١ ــ هناك تكافل بين الفرد وذاته •• فهو مكلف بأن ينهى نفسه عن شهواتها ، وأن يزكيها ويطهرها ، وأن يسلك بها طريق الصلاح وألا يلقى بها الى التهلكة • قال تعالى :

● **« فأما من طغى • وآثر الحيـاة الدنيا • فان الجحيم هى المأوى • وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المـأوى »** • (النازعات : ٣٧ ــ ٤١)

● **« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قـد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها »** • (الشمس : ٧ ــ ١٠)

● « ٠٠ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ٠ (البقرة : ١٩٥)

وهو مكلف فى الوقت ذاته أن يمتع نفسه فى الحدود التى لا تفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والرائحة فلا ينهكها ويضعفها ٠ قال تعالى :

● « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » ٠ (القصص : ٧٧)

● « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » ٠ (الأعراف : ٣١)

والتبعة الفردية كاملة ٠٠ فكل انسان وعمله ، وكل انسان ومايكسب لنفسه من خير أو شر ، ومن حسنة أو سيئة ، ولن يجزى عنه أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة ، قال تعالى :

● « كل نفس بما كسبت رهينة » ٠ (المدثر : ٣٨)

● « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ٠ وابراهيم الذى وفى ٠ ألا تزر وازرة وزر أخرى ٠ وأن ليس للانسان الا ما سعى ٠ وأن سعيه سوف يرى ٠ ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ٠ (النجم : ٣٦ — ٤١)

● « لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ٠٠ » ٠ (البقرة : ٢٨٦)

● « ٠٠ فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل » ٠ (الزمر : ٤١)

● « ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه ٠٠ » ٠

(النساء : ١١١)

وبذلك كله يقف الانسان من نفسه موقف الرقيب ، يهديها ان ضلت ، ويمنحها حقوقها المشروعة ، ويحسابها ان أخطأت ، ويحتمل تبعة اهماله لها ٠ وبذلك يقيم الاسلام من كل فرد رقيبا على نفسه ، يلاحظ ويحاسب ويعمل على التكافل فى الخير والشر ، فى مقابل منح الفرد التحرر الوجدانى الكامل ، والمساواة الانسانية التامة ، فالحرية والتبعة تتكافآن وتتكافلان ٠

٢ ــ **وهناك تكافل بين الفرد وأسرته** ، وقيمة هذا التكافل فى محيط الأسرة أنه قوامها الذى يمسكها • فالأسرة هى اللبنة الأولى فى المجتمع ، ولا مفر من الاعتراف بقيمتها •• فهى تقوم على الميول الثابتة فى الفطرة الانسانية ، وعلى عواطف المودة والرحمة، ومقتضيات الضرورة والمصلحة• قال تعــالى :

● **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صــغيرا »** • (الاسراء : ٢٣ ــ ٢٤)

● **« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك •• »** • (لقمان : ١٤)

● **« •• وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله •• »** •
(الأحزاب : ٦)

● **« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده »** •
(البقرة : ٢٣٣)

٣ ــ **وهناك تكافل بين الفرد والجماعة** ، يوجب على كل منهما تبعات ، ويرتب لكل منهما حقوقا • والاسلام يبلغ فى هــذا التكافل حد التوحيد بين المصلحتين ، وحد الجزاء والعقاب على تقصير أيهما فى النهوض بتبعاته فى شتى مناحى الحياة المعنوية والمــادية على السواء • فكل فرد مكلف أولا أن يحسن أداء عمله ، فاحسان العمل عبادة لله ، لأن ثمرة العمل الذى يقوم به الفرد ملك للجماعة وعائدة عليها فى النهاية • قال تعــالى :

● **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون •• »** •
(التوبة : ١٠٥)

وكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها وموكل بها • والحياة سفينة فى خضم ، والراكبون فيها جميعا مسئولون عن سلامتها . وليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منهـا باسم الحـرية الفردية • وفى الحديث النبوى الشريف :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا جميعا » • (رواه البخارى والترمذى)

وهذا تصوير بديع لتشابك المصالح وتوحدها ، بازاء التفكير الفردى الذى يأخذ بظاهر المعانى النظرية ، ولا يفكر فى آثار الوقائع العملية ، ورسم دقيق لواجب الفرد وواجب الجماعة فى مثل هـذه الأحوال •• وليس هناك فرد معفى من رعاية المصالح العامة ، فكل فرد راع ورعية فى المجتمع :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » • (رواه الشيخان)

والتعاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة فى حـدود البر والمعروف :

● **« •• وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان •• »** • (المـائدة : ٢)

● **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر •• »** • (آل عمران : ١٠٤)

وكل فرد مسئول بذاته عن الأمر بالمعروف ، فان لم يفعل فهو آثم وهو يعاقب باثمه ، قال تعالى :

« خذوه فغلوه • ثم الجحيم صلوه • ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه • انه كان لا يؤمن بالله العظيم • ولا يحض على طعام المسكين • فليس له اليوم ها هنا حميم • ولا طعام الا من غسلين • لا يأكله الا الخاطئون » • (الحاقة : ٣٠ ــ ٣٧)

وكل فرد مكلف أن يزيل المنكر الذى يراه .. فكل فرد مسئول عن كل منكر يقع فى الأمة ولو لم يكن شريكا فيه ، فالأمة واحدة ، وعلى كل فرد أن يذود عنها ويحميها . وفى الحديث الشريف :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان » .

(رواه مسلم وأبو داوود والترمذى)

والأمة كلها تؤاخذ وينالها الأذى والعقاب فى الدنيا والآخرة اذا سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيها ، فهى مكلفة أن تقوم كل فرد فيها . قال تعالى :

« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . (الاسراء : ١٦)

ولقد استحق بنو اسرائيل اللعنة على لسان أنبيائهم ، وذهبت ريحهم ، لأنهم لم يكونوا يغيرون المنكر ولم يكونوا يتناهون عنه . قال تعالى :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . (المائدة : ٧٨ — ٧٩)

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله . ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » .

(رواه أحمد)

— « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » . (رواه أبو داوود)

— « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

(رواه أبو داوود والترمذى)

والأمة مسئولة عن حماية الضعفاء فيها ورعاية مصالحهم وصيانتها ، وعليها أن تقاتل عند اللزوم لحمايتهم ، قال تعالى :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ... » (النساء : ٧٥)

وعليها أن تحفظ لهم أموالهم حتى يرشدوا :

« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » . (النساء : ٦)

وفى الحديث :

« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو القائم الليل ، الصائم النهار » . (رواه الشيخان والترمذى والنسائى)

والأمة المسلمة كلها جسد واحد ، يحس احساسا واحدا ، وما يصيب عضوا منه يشتكى له سائر الأعضاء . وهذه صورة جميلة يرسمها الرسول الكريم فيقول :

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .
(متفق عليه)

وعلى هذا الأساس وضعت الحدود فى الجرائم الاجتماعية وشددت ، لأن التعاون لا يقوم الا على أساس صيانة حياة كل فرد فى دار الاسلام وماله وحرماته . وفى الحديث :

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » .
(رواه الشيخان)

لذلك شرع القصاص فى القتل والجروح جزاء وفاقا . قال تعالى :

● **« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ... »** .
(النساء : ٩٣)

● **« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ٠٠ »** ٠
(المـائدة : ٤٥)

● **« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »** ٠
(البقرة : ١٧٩)

وشدد عقوبة الزنا لما فيها من اعتداء على العرض ، وعبث بالحرمة ، ونشر للفاحشة فى الجماعة ٠ قال تعالى :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ٠٠ » ٠
(النور : ٢)

وجعـل العقوبة ثمانين جلدة للذين يرمون المحصـنات المؤمنات ويفترون عليهن ، ويلوثون أعراضهن كذبا ٠ قال تعالى :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ٠٠» ٠ (النور : ٤)

وشدد العقوبة على السرقة لمـا فيها من اعتداء على أمن الناس وطمأنينتهم والثقة المتبادلة بينهم ، فجعلها قطع اليد :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من اللـه ٠٠ » ٠ (المـائدة : ٣٨)

والذين يهددون أمن الجماعة العام — فى دار الاسلام المحكومة بشريعة الله — جزاؤهم القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدى والأرجل أو النفى من الأرض :

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ٠٠ » ٠ (المـائدة : ٣٣)

لأن الائتمار والاجتماع على الافسـاد والفتنة جريمة أكبر من الجرائم الفردية ، وأحق بالحسم وشدة العقوبة ٠

وهكذا يفرض الاسلام التكافل الاجتماعى فى كل صوره وأشكاله ، تمشيا مع نظرته الأساسية الى وحدة الأهداف الكلية للفرد والجماعة ، وفى تناسق الحياة وتكاملها .. فيدع للفرد حريته كاملة فى الحدود التى لا تؤذيه ، ولا تأخذ على الجماعة الطريق ، ويجعل للجماعة حقوقها ، ويكفلها من التبعات فى الوقت ذاته كفاء هـذه الحقوق ، لتسير الحياة فى طريقها السوى القويم ، وتصل الى أهدافها العليا التى يخدمها الفرد وتخدمها الجماعة سواء .

وعلى تلك الأسس الثلاثة : التحرر الوجدانى المطلق ، والمساواة الانسـانية الكاملة ، والتكافل الاجتماعى الوثيق .. تقوم العـدالة الاجتماعية ، وتتحقق العدالة الانسانية .

* * *